قصة

زفاف يتوج بالدم

بقلم الاستاذ جبر فرحان الكناني

لقد ذهب من الليل نصفه والفتى مازال مضطربا على فراش الوسأوس الاوهام وكم حاول أن يطبق جفنيه ليسرق بعض اسباب العافية بين طيات النسيم البارد وهدأة الكون النائم.. فلم يفلح .

وهكذا مرت بخاطره لحظة عابرة تفقد معها شؤونه في الحياة فوجدها في غاية الاطمئنان والثناء .

سيما وانه قد بسيطر سيطرة مطلقة على « ثقة المجتمع » فغزاها ـ واغتنمها ـ وتحلى بها فهو (صياد مجتمعات) قل أن تجد مجتمعاً من النـاس لم يلهج بذكره ومديحه . وهو ذلك الشاب الفقير الذي لا يملك من حطام الدنيا شيئاً يعتز به ، سوى زهده ـ وتقواه ، وعمة يأوي اليها فحنت عليه بعدان فقد والديه حتى بلغ الحادية والعشرين من عمره ـ ومكتبة صغيرة يرتوي من مناهلها ـ وكانت اعز شيء لديه

***

وبينما هو يغانق اشباح الارق . واذا صوت المؤذن يملأ طرقات الحي وبيوتاته ، يسبح بحمد الله ـ معلنا بالنهوض للصلاة ـ فنهض الفتى ـ خائر القوى ، شاحب اللون ، وخرج من بيته والكون لما يستيقظ من الكرى الا بعض الاطيار هبت مبكرة مزقزقة تستقبل برنات اصواتها المشجية ، حلة الفجر الفضية .

فسار شوطاً ، على ساحل النهر المنساب بين بساتين النخيل المكتظة ، حطم مع خروجه الى الفضاء الرحيب اشباح الليلة الماضية فاراح نفسه من وساوسها وآلامها . فانتعش انتعاشة لذيذة حطمت روعه بجلال الهدوء ، وانبتت للشؤوم جناحين صفق بهما فطار .

وحينئذ جلس على الشاطىء الرملي وارسل يديه في الماء ـ للوضوء ـ وانتهى وما زال الفجر لاهياً بتحطيم اغلال الليل بسيوف السحر الفضية .

فطرح عباءته على الشاطىء وولى وجهه شطر المسجد الحرام وشرع يشيع آخر الليلة المشؤومة بتقديس ذكر الله العظيم .

« كأنه بطل صغير انتصر بعون الله على عدو قاهر مخيف » .

***

وعاد ادراجه الى بيته اشد ما يكون نحولا وشحوبا . وبينا هو يسير في الشارع والناس لما تستيقظ ، واذا بحركة خفيفة (من نافذة شباك) يستجاب نظره ـ فارسل عينيه مستطلعاً .

فاذا بها يستقران على جسم لدن ـ ليس بالطويل القارع ـ ولا بالقصير المجتث وخدين اسيلين كمرآتين صقلتا بيد عارف فنان ـ وعينين زينها الكحل لا الكحل قد ملئتا روعة وسحرا « وهكذا في زوايا البيوت المحجبة تقبر الفتاة نظارتها وجمالها فتكون نسياً منسيا اوقل ـ تتساوى الكاعب الحسناء والدميمة العجفاء تحت ستار الحجاب . « ولكننا نأبى الا هذا . حرصا على وحدة مجتمعنا الرصين » .

***

التقت عيناهما ـ دون قصد ـ فما افترقا الا وادمى كل صاحبه وترك في قلبه جرحا طريا يقطر لهفة وشوقا .

اضطرب خالد واعترته نشوة الهوى ـ حلقت به الى عالم الهيام « فالحب فضيلة تنخذل امامها كل فضيلة ـ فانه سلطان لا يقهر مهما كان الخصم عنيداً قويا » وسار في طريقه وهو اشد مايكون حيرة وارتباكا ـ كأن الحياة قد فتحت له بابا جديداً اطلّ منه على عالم آخر ليس له به عهد من قبل .

وما ان بزغ فجر اليوم الثاني الا والفتى يغدو ويروح (بجانب الشباك) والفتاة واجمة في مكانها تتصيده بسهام لواحظها الخلابة ثم اوثقته بابتسامة سلبت لبه بريق ثناياها العذاب .

تركته ملقى على فراشه يفكر بهذا الحادث الجديد ـ فلم يخرج الى عمله في ذلك اليوم . وكم حاولت عمته ، أن

تستطاع منه الخبر فلم تستطع لذلك سبيلا .

لزم خالد بيته سبعة ايام كان اكثر ما يزعجه خلالها تهافت الناس اليه وزياراتهم له ـ فقد اصبح يعشق العزلة والانفراد ويتلذذ بها ـ بعد ما كان لايأنس الا بالمجالس . وفي ظهيرة يوم بينما يحرر رسالة وعيناه قد جالت بها دمعه ساكبة دخلت عليه « عمته » فرأت ان علامات الارتباك والانكسار بادية على محياه الجميل واشد ماذهلت حينما ـ ابى عليها ـ بكشف الحقيقة .

لكنها اصرت عليه وبعد المماطلة العنيفة ـ صارحها ـ بما قد علق به من حب (سلمى) صمت « العمة » في مكانها وقد حل الخبر منها كحلول الصاعقة في قلبها فاردته مثقلا بهمومه مضرجا بدمائه ـ لساعته .

ذلك لأنها تعرف يقين ان [هاشم] « والد الفتاة رجل غني يملأه الغرور ـ وصاحب مكانة مرموقة في المجتمع ـ وان عائلته اشد العوائل بحب الذات والكبرياء حتى ان « سلمى » لتمقت الاجتماع مع نساء الحي وفتياته اشد المقت ظناً منها ـ بأنها ـ اشرفهن حسباً ـ واغناهن ثروة ، وبذا تترفع عنهن .... « فالمال يكلل الجمال بتاج الغرور ، وكم من كاعب حسناء اذلها الفقر بآلامه وهوانه » .

***

فتصرف جل اوقاتها بين صفحات الكتب والمجلات فحصلت بذلك على ملكة في الأدب قليلة زادتها غروراً على غرور : وإن فتيان الحي ليعرفون فيها ذلك الغرور معرفة العين للشمس ولذا فقد احجموا عن خطبتها حتى اذا جاوزت سن الخامسة والعشرين

***

الا ان العمة طمأنت ابن اخيها بسهولة الامر واخفت عليه حقيقة المشكلة وكأن هذه المرأة « اي العمة » اقوى قلبا واشد مراساً من فتيان الحي الجبناء ـ ولذا فقد هيأت نفسها للكفاح .

فعليها ان تخوض معارك ـ نفسية ـ واخلاقية ـ ومادية هائلة .

فتحطم الغرور في الفتاة ـ وتمزق عن الاسرة ستار الحجاب الكثيف ـ وتبعد عن اذهان العائلة جميعاً عجرفة المال وكبريائه .

وقد افلحت بعد جهد جهيد بكسب ثقة العائلة جميعا فنظرتها « سلمى » بعين الاجلال والاكبار . غير انها كانت تخفي على الفتاة غاية هذه الصداقة . الا ان « خالد » ضاق ذرعا بمماطلة عمته له ، وقد تملكه اليأس ، وجن به الهوى . فعاتبها عتابا يستفز الاشفاق وطلب منها ان تبرهن له على صداقتها مع « سلمى » برهاناً صادقا يطمئن له قلبه ـ

فاجلسته في مكان من الدار واخبرته بان لايغادر هذا حتى تؤوب ، وخرجت . . . . . .

وماهي الا دقائق معدودات عادت ومعها « سلمى » فاجلستها في مكان وسط الدار يشرف عليها « خالد » دون ان تراه . فخلعت عباءتها ولم تبق الا برداء خفيف ظهر من خلاله جسمها البض كأنها تمثال من الجمال ـ بهيئتها

***

فعر « خالد » وتملكه الروع ، وكأنه في حلم لذيذ في ساعة البكرى ـ لاامامها حقيقة في اليقظة وجها لوجه .

جلست « العمة » بجانبها وتناولا حديثا يتعلق بالانسان وهمومه ، ومصائبه ، [هنا في الحديث قلبان]

قلب ـ يضطرب اشد الاضطراب لخيانته وارتكابه الجريمة

وقلب ـ هادىء مطمئن غرته الثقة فانساب خيالا مع الحديث وهناك ـ هناك .

في زاوية من البيت قلب خفق ، واضطرب ، وارتبك اشد الارتباك ـ « بين خيانة عمته وغرر الفتاة » فانتابته عوامل مشوشة فقد معها الصواب فخرج من زاويته وتقدم نحوها بخطى وئيدة ـ ذهلت مع خروجه « سلمى » لكنها ظلت على حالها مذعورة لغرابة الامر .

حتى صار امامها وانحنى عليها فلم يعتدل الا وقد طبع على جبينها قبلة افرغ معها كل همومه وآلامه ـ خجل ـ بعدها ـ اشد الخجل ـ . وعاد الى الفتاة رشدها ، تحركت معه حميتها فدفعته بكلتا يديها كمكمته الى الوراء وارتدت عباءتها وخرجت كانها عربيدة هائجة . اما العمة فابتسمت ابتسامة النصر ـ كانها تهزأ بهذه البداية الوقحة او كأنها تهنىء الفتى على جسارته ـ

ـ حتى لاتأخذه عوامل الاضطراب فيفزع .

انقطعت أسباب الصلة بين العمة والفتاة عدة أيام يئس خلالها خالد وسل على نفسه سيف الذل واللوم .

غيرأن (العمة) الجسور قطعت حبل الجفاء فذهبت لزيارة الفتاة فى بيتها وما ان التقت عيناها حتى فاجأتها «سلمى» بابتسامة خالطها الحياء والخجل ـ كأنها معجبة بحسن تدبيرها وجرأة أقدامها .

***

استجابت « سلمى » لداعي الحب فصارت لاتحفل إلا بلقاء [العمة] أو بتنميق رسالة الى « خالد » حتى تاهت فى أودية الغرام والهيام فطاشت طيشاً صير عندها ذلك الغرور والكبرياء والعجرفة أوهاماً صفقت فطارت جينما تغلغل الحب فى أعماق قلبها ... إلا أن غيرة الفتاة الفتاة على سمعتها وشرف عائلتها وشدة الحجاب وقيوده كانت عوامل تنغص عليها حرية الاجتماع ـ إلا ماندر ـ وبذلك زاد حبها جنوناً ولوعة ـ

استمر حبها خمس سنوات يشكله هذا وقيوده هذه ذاع خلالها سرها وانتشر في الحي خبرها فضرب المثل بها حتى أن الناس صاروا لايحفلون « بخالد » ونظروه بعين الهزء والاستخفاف بعد الثقة والاجلال .

(كأن في الحب جريمة نكراء يلطخ بها المرء فيصاب)

فضّل خالد العزلة وصار لايأبه بالناس ومجالسهم وأخذ يتوج أوقات فراغه بنظم القصيد الغزلي وتحرير رسائل الشوق والاخلاص لحبيبته سيما وإن بريده المسجل [عمته] لاتترك قصاصة من هذه الرسائل إلا وتوصلها الى « سلمى » وترجع بمثلها لفتاها .

وبينما هو يحرر رسالة من هـذه الرسائل في أمسية يوم واذا بعمته تدخل عليه وفي يدها قصاصة من الورق سجل عليها : ـ

« إنّ كاظم بن جاسم سيقدم على خطبتي الليلة تدارك الأمر ـ فان في الطريق عورة . سلمى

ذهل (خالد) واستغرب هذا الحادث بهذا الاسم . لأنه يعرف الرجل قد بلغ الستين من عمره ومتزوج بزوجتين عنده منها عدة ابناء ـ إلاانه غني موسر « ولكن المـال كثيراً ما يقود الاعمى على طريق الرشاد ويجلس بالجهول الاحمق فى بيوت النعيم والسعادة »

هذا مادار بخلد الفتى ولكن عليه ان يعمل مسرعـاً لينقذ نفسه وحبيبته .

***

هيأ نفسه وهب في فزع وروعة وعمته تتبعه وذهبا الى « الحاج جليل » ذلك الشيخ الذي يهابه الناس لعظم مكانته في المجتمع ونفوذه . ـ فشرحا له الامر .

نهض « الشيخ » وأخذ معه جماعـة من اشراف الحي وذهبوا جميعاً الى بيت (هاشم) بأسرع ما يمكن .

وما ان دخلوا فناء الدار حتى وجدوا ان (جماعـة الخطيب الاول) قد استقر بهم المكان وهم يتداولون امر الخطبة وتحديد المهر . فسلم (الحاج جليل) وتكلم فجأة كأنه ـ يحرص على الوقت أشد الحرص وعرض على (هاشم) بماقد قدم ارتبك (هاشم) لهذه المفاجأة وفكر وعدم القبول بادىء بدء . لكن حرمـة (الحاج جليل) الجمته عن ذلك ثم تدارك أمره فعرض عليهم أن يشاور فتاته بأمر الخطيبتين ـ فوافقوا جميعاً .

دخل الاب على الفتاة فوجدها ذاهلة تخاصم أشباح القدر ـ وعلائم المسـكنة بادية عليها ـ فاخبرها بجلية أمر الخطبتين . . . فوسوس لها بالمال فى أمر الخطبة الأولى وذم لها الفقر وعدمه وهوانه فى الثانية

بقيت « سلمى » واجمة تنتابها عوامل الاضطراب التفكير . فان هى قبلت (بالخطبـة الاولى) قبرت حبها فى لحد الخيانة « وهذا غير ممكن » وإن رضيت (الثانية) وصمت سمعة عائلتها بعار الحب حسب مايقره وضع المحيط لكنها ارتأت فى النهايـة حلا وسلما ... . فرفضت كلا الزواجين . حتى تترك لحبيبها مجالا آخر من الوقت يهو فيخطب .

***

صدم الاب صدمة عنيفة بهذا الرفض فنظر اليهـا شزرا وخرج . خرج منها كشيطان تفيض من جانبيه

الرذيلة ـ وهو أشد ما يكون حمقا وسخرية بها ـ كانه لا يعبأ بثمن عاطفتها مثلما حسبت حساب شرفه سلب له المال ـ وانصاع لرغبة عاطفته ـ فدخل عليهم والقوم يكالمهم الصمت والسكون فكلهم يريد أن يحظى بمعركة الشرف هذه.. فانبرى لهم بلسان ذاق مظهراً التأسف (للشيخ وجماعته) وعدم موافقة الفتاة بالزواج من الفتى .

ولو انصف القدر لبتر لسانه ذاك اللسان الاثيم بمقراض الصدق والامانة .

انفض الخاطبون وخرج الشيخ يتعثر باذيال الخيبة والفشل وما ان وطأت رجلاه عتبة الباب حتى استقبله (خالد) بصمت رهيب وعينين علقتا بشفتي الشيخ وهي أحر ما تكون استطلاعا عن الكلمة الاولى فاما ـ الأمل والهناء ـ واما الفشل والشقاء .

إلا أن الشيخ تلقاه بدمعتين حارتين تراخت معهما أعضاء الفتى فهم بالسقوط على وجه الارض فبادركه الشيخ فضمه وانتحب ....

اما « سلمى » فقد ادركت خيانة أبيها ـ لها ـ ...

ولكن ماذا تعمل ....

[فان الفتاة العراقية لا تملك من أمر زواجها شيئاً فكانها دمية تباع في الاسواق بيد ذويها وولاة أمرها لمن يدفع بها ثمنا اكثر ـ إلا ماندر ـ]

***

زفت « سلمى » لخطيبها الكهل وهي تقاسي أمض نوبات الهوى ـ والتوعك لكن أباها ارغمها قسراً على الزفاف ـ بالرغم من معارضتها الشديدة .

اجتمعن نساء الحي وفتياته لزفافها ـ فركبن في سيارات من نوع « باص » سارت على انغام زغردة النسوة وهتافهن دوت في أذني الفتى (خالد) وهو ملقى على فراشه من هول الصدمة وعمته بقربه وقد كلل الصمت ارجاء الغرفة الا هذا الهتاف الذي يعلن زفات « سلمى » إلى (كاظم) فنهض من فراشه وخرج ...

خرج وقد فقد رشده وتملكه الجنون فاخذ يركض ويعدو كان لم يكن به من شيء فهم بنفسه وهمت به فاسرع واسرعت حتى القى بذلك الجسم الهزيل تحت رحمة عجلات السيارة التي تقلها فتركته هشيما محطما وجثة هامدة إلا من صيحة خافته رددها مرتين سلمى ... سلمى

فذعر النسوة واجتمع الناس ....

ولشد ما عجبوا حينما شاهدوا الفتاة تنادي لبيك لبيك فتخلع ثوب الزفاف ـ وترتدي ثوباً أحمر نسجته من دمها بسكين كانت تخفيها تحت ثيابها ...

ضمدت رضوض حبيبها بامعائها وحنت عليه كأنها تقبله .... فامتزج الجسمان في بعضهما البعض ـ

وانقلب الفرح الى حزن فاجع ـ والعرس الى مأتم فظيع .

***

وحملت الجثتان الطاهرتان الى مأواهما الابدي وعاد الناس من قبرهما وعلى كل لسان لعنة على ذلك الأب المجرم الاثيم ....

الحر الكبير — فرحان جبر الكناني

عجائب الحب

بقلم الاديب السيد عبد الكريم كمال الدين

عذبيني ولا تخافي أنيني ... أنا أهواك في ظلال المنون
أنا استعذب الغرام شجونا ... حيث يطغى على الفؤاد الحزين
واجعلي النار في دمي تتلظى ... فهي اكسير حبي المجنون
ان للشر في البرية ميلا ... فاصنعي بي أو بالهوى كل هون
ان أتى الصبح في جمال محته ... كف ليل من السحاب الجون
ان بدى البدر في السماء بديعا ... هالة الصبح فاختفى في سكون
لا يعيش الوفي عيشا رغيداً ... انما العيش للذميم الخؤون
هكذا الحب والغرام هناء ... وشقاء مستسلم للظنون
وخداع في كل ما يبتر أي ... من خيال في سمعه والعيون
فاظلميني ما شئت ظلمي وإلا ... فارحميني ما شئت ان ترحميني
أنا في البعد والوصال سواء ... كل شيء به هوى من شؤوني
وشعوري بذى الحياة عجيب ... وعجيب جدى بها وجنوني

عبد الكريم كمال الدين